مدينة القاهرة

بحث في تأسيسها وسبب تسميتها
على ذكر الاحتفال بعيدها الألفي

لكامل صالح نخلة
عضو لجنة التاريخ القبطي

قال علي باشا مبارك في الجزء الثالث من خططه في ترجمة القائد جوهر الرومي الأصل ما يأتي « لما عزم المعز على تسيير الجيوش لأخذ مصر وتهيأ امره قدم عليها القائد جوهر ومعهُ ما ينيف على مئة الف فارس وبين يديه أكثر من الف صندوق من المال وكان المعز يخرج اليه في كل يوم ويخلو به وأطلق يده في بيوت امواله فأخذ منها ما يريد زيادة على ما حمله معهُ وخرج اليه يوماً فقام جوهر بين يديه وقد اجتمع الجيش فالتفت المعز الى المشايخ الذين وجههم مع جوهر وقال «والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ولتدخلنَّ الى مصر بالاردية من غير حرب ولتنزلنَّ في خرابات ابن طولون وتبني مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا »

فلما استولى القائد جوهر بعساكر مولاه الامام المعز على الديار المصرية في سنة ٩٦٨ ميلادية واصبحت جميع البلاد المصرية خاضعة للدولة الفاطمية من دون مقاومة ما شرع في تحقيق رغبة مولاه فعمد الى بناء عاصمة الفاطميين على نمط تنافس به بغداد عاصمة العباسيين حتى يخلد لنفسه ذكراً حسناً فاختار في سنة ٣٥٩ هجرية (٩٧٠ ميلادية) بقعة من الارض هي التي أناخ جماله فيها يوم جاء لفتح الفسطاط فانهُ نزل الى شماليها حيث الجامع الأزهر وبيت القاضي وخان الخليلي وبين القصرين وما جاورها من الاماكن التي بين الجبل والخليج وصارت القاهرة دار الخلافة ينزلها الخليفة بحرمه وخواصه

وقد وصف علي باشا مبارك في الجزء الاول من خططه المكان الذي اختير لانشاء العاصمة الفاطمية الجديدة فقال « وكانت هذه البقعة رمالاً فيما بين مصر الفسطاط وعين شمس التي تسمى الآن بالمطرية يمر بها الناس عند سيرهم من الفسطاط الى عين شمس . وعند نزول جوهر بهذه الرملة لم يكن فيها غير البساتين وأماكن قليلة منها بستان الأخشيد محمد بن طغج المعروف بالكافوري وكان هذا البستان في شرق الخليج ومحله اليوم فيما بين جامع الشعراني والسكة الجديدة

قريباً من قنطرة الموسكي ممتداً في الجهة الشرقية الى النحاسين وكانت مساحته ستة وثلاثين فداناً بمقياسنا اليوم ويجاوره من الجهة القبلية ميدان الاخشيد ومحله الآن من حفة الخليج الشرقية الى شارع السكرية والغورية وكان في محل الجامع الأقمر دير للنصارى يعرف بدير العظام يزعم النصارى ان فيه بعض من أدرك المسيح عليه السلام وبئر هذا الجامع هي بئر ذلك الدير وتسميه العامة بئر العظمة وكان بهذه الرملة موضع آخر يعرف بقصر الشوك ينزله بنو عذرة في الجاهلية وصار عند بناء القاهرة خطاً يعرف بقصر الشوك وفي تلك الحقبة كان الخليج المصري ينتهي الى قنطرة بناها عبد العزيز بن مروان سنة ٨٩ هـ موضعها الآن منتهى حدرة السيدة زينب رضي الله عنها وكانت الحارة طريقاً لا بناء فيه تمر الناس فوق تلك القنطرة الى بره الغربي والى ساحل النيل وكان في غربي الخليج المصري تجاه معسكر جوهر قرية تعرف بأم دنين ثم عرفت بعده بالمقس وهي الآن خط من اخطاط القاهرة واقع الى يسار من يسلك من شارع كلوت بك الى سكة الحديد ممتداً الى الشارع الواقع عليه جامع اولاد عنان وكان الخليج فاصلاً بينها وبين الرملة المذكورة ثم صار بعد بناء القاهرة ميداناً توضع فيه الغلال سماه المقريزي ميدان القمح »

وقال أيضاً في هذا الجزء من خططه ... « ولما دخلت عساكر المعز الديار المصرية سار جوهر الى الفسطاط ودخلها يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ فاختار ان يبني بحريها بعيداً عنها فاختط المعسكر في الرملة التي كانت تجاه قرية ام دنين

« فاستقر جوهر هناك واختط القصر فلما اصبح المصريون ذهبوا اليه للتهنئة فوجدوه قد حفر أساس القصر ليلاً وكانت فيه ازورارات فلما رآه لم تعجبه ثم أغضى عنها وقال انه قد حفر في ليلة مباركة وساعة سعيدة فتركه على حاله وأدخل فيه دير العظام الذي في محله الجامع الاقمر واختطت كل قبيلة خطة عرفت بها وأدار السور الذي جعله من اللبن على مناخه الذي نزل فيه بعساكره وسماها المنصورية ولما كملت في ثلاث سنين وبلغ المعز اتمامها خرج من مدينة المنصورية تحت ملكه بالمغرب يريد ارض مصر فدخل الاسكندرية وأقام بها مدة ثم سار الى الفسطاط بعساكره واجتاز النيل على جسر عمله له جوهر عند البستان المسمى بالمختار وكان في الطرف البحري من جزيرة المقياس فلم يدخل الفسطاط مع انها زينت له واستعد أهلها لملاقاته بل سار الى ان دخل القاهرة وكان معه اولاده واخوته وسائر اولاد جده عبيد الله المهدي اول ملوك الدولة الفاطمية بالمغرب وتوابيت آبائه »

ولما أدخل جوهر دير العظام في القصر عوض المسيحيين الاقباط عنه بدير الخندق ونقل جوهر العظائم التي كانت في الدير المذكور الى دير الخندق المعروف الآن بانبا رويس ندفنها وبنى مكان الدير مسجد الأقمر من داخل السور

وقد جاء في خطط المقريزي أن القاهرة في أول الأمر كانت تسمى القلعة والطابية والمعقل والحصن وقصد القائد باختطاطها في هذا الموقع ان تكون حصناً للفسطاط من يقصدها من جهتها البحرية وقد أطلق عليها اسم المنصورية والمعزية أيضاً . وكانت في الحقيقة عبارة عن قصرين عظيمين وملحقاتهما وبينهما ميدان فسيح يكفي لعرض عشرة آلاف جندي وكان عدد سكانها وقت انشائها نحو ثلاثين ألفاً

وقال ابن سعيد في كتاب المغرب في حلى المغرب عن البيهقي « وأما مدينة القاهرة فهي الباهرة التي تفنن فيها الفاطميون وابدعوا في بنائها واتخذوها وطناً لخلافتهم فنسي الفسطاط وزهد فيه بعد الاغتباط وقال سميت القاهرة لانها تقهر من شذ عنها ورام مخالفة أميرها وقدروا ان منها يملكون الارض ويستولون على قهر الأمم وكانوا يظهرون ذلك ويتحدثون به

وقال المقريزي في الجزء الثالث من خططه في باب ذكر سور القاهرة « ولما سار جوهر من الجيزة بعد زوال الشمس من يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شهر شعبان سنة ٣٥٨ هـ بعساكره وقصد الى مناخه الذي رسمه له مولاه الامام المعز لدين الله ابو تميم معد واستقرت به الدار اختط القصر وأصبح المصريون يهنئونه فوجدوه قد حفر الاساس في الليل فادار السور اللبن وسماها المنصورية الى ان قدم المعز لدين الله من بلاد المغرب الى مصر ونزل بها فسماها القاهرة ويقال في سبب تسميتها ان القائد جوهر لما أراد بناءها أحضر المنجمين وعرّفهم انه يريد عمارة بلد في ظاهر مصر ليقيم بها الجند وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الاساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم ابداً فاختاروا طالعاً لوضع الاساس وطالعاً لحفر السور وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين حبل فيه أجراس وقالوا للعمال اذا تحركت الاجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك فاتفق ان وقع غراب على حبل من تلك الحبال التي فيها الأجراس فتحركت كلها فظن العمال ان المنجمين حركوها فالقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا فصاح المنجمون القاهر في الطالع فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه ويقال ان المريخ كان في الطالع عند ابتداء الاساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة واقتضى نظرهم انها لا تزال تحت القهر »

وقال استانلي لين بول المؤرخ الشهير في كتاب العصور الوسطى من تاريخ مصر « ان الخليفة المعز كان يصدق المنجمين المغاربة قدماءهم واستشارهم في أصلح وقت يمكن البدء فيه بوضع أساسات المدينة الجديدة التي اختطها جوهر فأشاروا عليه بتعليق أجراس في حبال ينصبونها على أعمدة حول تخطيطات المدينة وأمروا الفعلة ان لا يبدأوا بعمل الا عندما يسمعون دق الاجراس واخذ المنجمون يرصدون النجوم ليختاروا أنسب وقت للبدء بالعمل فيه

ولكن ساعتئذٍ حطت فاْس غراب ووقع على احد الحبال فدقت الأجراس قبل الموعد المنتظر فأسرع العمال بوضع الأساسات وحينئذٍ رأى جوهر ان يسمي المدينة الجديدة باسم الكوكب الذي كان طالعاً في لحظة دق الأجراس وكان كوكب القاهر او المريخ فاستقر جوهر بتسمية المدينة باسم القاهرة تيمناً بهذا الكوكب »

وورد في القاموس القبطي الذي وضعه العلامة الاثري اقلاديوس بك لبيب أن اسم القاهرة او المحروسة او مصر القاهرة يرجع الى اللغة القبطية بكلمة Tikeshromi وهي مركبة من كلمة Kesh او Kash ومعناها كسر أو قهر ومن « Romi » ومعناها رجل أو انسان وهي تسمية حديثة من القرون القبطية المتأخرة

أما ما ذهب اليه البعض من ان اسم القاهرة مؤلف من لفظتين قبطيتين وهي « Kahi » بمعنى ارض و « Ra » بمعنى رع أي الشمس فهو ابتكار حديث لمجرد المصادفة بين نطق الاسم العربي الاصل ونطق اللفظتين القبطيتين وليس له أصل في الكتب والقواميس والمراجع القبطية ولم يذكره العلامة شمبوليون « Champollion » في كتابه عن مصر الفراعنة ولا العلامة كترمير « Quatremere » في مؤلفه الجغرافي والتاريخي لمصر ولا العلامة اميلنو « Amelineau » في كتابه جغرافية مصر ولا يمكان اذن اطلاق هذا الاسم القبطي على مدينة الشمس الحقيقية وهي عين شمس التي تعرف باسم « اون » لأنها خليقة به

ويظهر انهم صاغوا هذا الاسم قياساً على اسم مدينة هور اذ قالوا ان اسمها القبطي « Kahihor » مؤلف من لفظتين قبطيتين « Kahi » بمعنى ارض و « Hor » الاله هوروس وهي بالقرب من الاشمونين في مديرية اسيوط بمركز الروضة . والذي ذهب الى هذا الرأي هو العلامة كرانوف [illegible] على سبيل الخدس اذ قال هذا العلامة في كتابه « الاسماء القبطية » عند ذكر القاهرة ما يلي

« ان هذا الاسم هو بلا شك عربي محض وهو مؤنث القاهر أي الكاسر وقال البعض انه نعت لاسم كوكب المريخ الذي سميت المدينة على طالعه وقال البعض ان هذا الاسم اطلق على المدينة لأن جيوشها تسحق الاعداء الخاصمين ولكني لا أرى مانعاً من ان الاحظ ان السهل الذي أسست فيه مدينة القاهرة يمكن حسبانه صاحبة لعين شمس مدينة رع وان الترجمة القبطية [illegible] و [illegible] ارض رع . تطابق النطق العربي للقاهرة تقريباً » و اذا كان العلامة كترمير امكنه ان يعرف ان مدينة [illegible] هي ارض هور فيمكن التسليم كذلك بان كلمة القاهرة العربية تطابق لفظة قبطية تتمشى معها . ولكن هل استعمل القبطيون هذا الاسم او نقطة هذا ما نجهله ويمكن ان نقول بان رأي كرانوف هو الذي حملني على ان ادخل على سبيل التخمين لفظ

وقال كازانوفا عند ذكر مدينة مصر ما يلي « ولو أني مقتنع بان مدينة مصترام Mistram تطلق على القاهرة ولكني اعتبر هذا الرأي من قبيل الحدس والتخمين لان مجموعة كيمي Kimi ومصترام يمكن ان تدل على مجموعة اخرى غير مصر والقاهرة وكذا يمكن ان نرى في لفظة مصترام شكل آخر للفظة Koshromi لانهُ لا يغرب عن الظن انهُ كان للقبط مجموعة اخرى مكونة من الفسطاط (مصر) وبابلون (قصر الشمع) وعلى اي حال فأن في هذا الرأي مجازفة .

وقال العلامة ده روجيه J. de Rongé في كتابهِ عن جغرافية الوجه البحري القديم انهُ اطلق على مدينة عين شمس اسم Peitfri Eiliuo كما انهُ قال ايضاً ان العلامة بروجش Brugsch يميز مدينتين مختلفتين في عين شمس الاولى اسمها « Pira » بمعنى مكان رع أو بيت الشمس وهي مدينة العبادة الكبرى والمعابد والثانية « On » بمعنى شمس وهي المدينة العلمانية أي المدنية

ولم يذكر جاناه عند ما سرد اسماء المدن المكونة لمدينة عين شمس وضواحيها وملحقاتها شيئاً اسمه Kahira وكذا عندما تكلم عن مدينتي بابلون والفسطاط وما جاورها وفي هذا الدليل الساطع على عدم وجود مدينة قديمة في ضاحية عين شمس ولا في ضاحية الفسطاط ولا فيما بينهما تحمل اسم القاهرة . كما ان العلامة دارسي G. Daressy لم يذكر في ابحاثه عن المدن المصرية في العهد القبطي مدينة تعرف باسم القاهرة Kahira

وبناء على ما سبق إيضاحه نرى ان العلامة كازانوفا لم يقل ان مدينة القاهرة الفاطمية بنيت على أنقاض او تلال مدينة مصرية قديمة لان جميع المؤرخين اجمعوا على ان موضع القاهرة كان سهلاً رملياً لا أثر لتلال فيه ولم يذكر التاريخ ان الفواطم عثروا على آثار وقت تخطيطهم المدينة كما أن جاناه لم يقل انهُ عثر على كلمة قاهرة القبطية في القواميس او التواريخ القديمة بل انهُ رأي استنتاجي غير مبني على أساس تاريخي وكل عمدته فيه هو القياس والصدفة من جراء نحت كلمة قبطية طابقت في نطقها اللفظ العربي وخصوصاً انهُ قرر صراحة بان اسم مدينة القاهرة عربي محض وانهُ لم يقل أحد ان الفواطم استعانوا بالقبط على تسمية العاصمة الجديدة فلا تكون التسمية مصرية قديمة كما انها لم توضع بمعرفة قبط مصر وقت انشاء المدينة وان القصد الحقيقي منها هو القهر والكسر اي ان الغرض من التسمية هو تعريف المدينة بانها لا تقهر ولذلك ترجمها القبط المعاصرون للفتح الفاطمي باسم Tikeshromi الدال على معنى القهر وهذا ما وصل اليه بحثي في موضوع التسمية واسبابها التاريخية

وقد تمَّ بناء القاهرة في نحو ثلاث سنوات ووصل خليفة المعز لدين الله اليها آتياً من المغرب ودخلها في أواخر مايو سنة ٩٧٢ ميلادية وكان دخوله باحتفال عظيم من باب زويله وبنى حولها السور ولم يزل بعض آثاره باقياً الى اليوم